

مصطلح الملكة اللسانية

عند ابن خلدون

The term of linguistic gift with Ibn Khaldun

د. عبد الخالق فضل رحمة الله¹

Dr Abd Al Khalig Fadl Rahamt Allah

الخلاصة

الملكة اللسانية عند ابن خلدون اصطلاح يُفصّدُ به قدرة اللسان على التحكم في اللغة والتصرف فيها، أي المعرفة الضمنية بقوانين الإعراب، وليست قوانين الإعراب ذاتها. تُكْتَسَبُ الملكة بممارسة كلام العرب وتكرره على السمع، والتفطن لخواص تراكيبه، وبالإمكان تغذيتها وإثراؤها، والعناية بها قد تساعد على المحافظة عليها من الفساد والامتزاج بالملكات الأخرى. هذا وقد رَبطَهَا بالعرف اللغوي والاجتماعي، كما ربطها بالدين والدولة. ويرى ابن خلدون أن الإنسان لا يستطيع امتلاك أكثر من ملكة لسانية واحدة بصورة تامة، وذلك لأن الموقع المختص بالملكة اللسانية في نفس الإنسان - قد احتلته الملكة اللسانية التي بنتها لغة المرء الأم، حيث تتأصل هذه الملكة اللسانية في ذات المرء، وليس بالإمكان نزعها أو استبدالها بملكة أخرى مغايرة.

ABSTRACT

According to Ibn Khaldun, the linguistic gift is a term that refers to the tongue dexterity with a language and manipulation of it; that is, the native speaker's intuitive knowledge of the language rules, rather than the grammatical rules themselves.

The Linguistic gift, that is in Arabic, can be acquired through practicing spoken Arabic, familiarization of the ear with it, discovery of its structural characteristics and its enrichment. Care with the language can be a useful aid in guarding it against corruption and dissolution in other spoken languages. Ibn

¹ جامعة السودان المفتوحة.

Khaldun linked it with linguistic and societal conventions, as well as with religion and the state.

Ibn Khaldun believes that a person cannot acquire the same and full command of more than one language. That is because the room for the linguistic gift in a person, is already occupied by that in the mother tongue, which becomes so intrinsic and deeply rooted in a person that it can be neither eradicated nor replaced.

1. التعريف بابن خلدون

1.1 حياته

وُلد أبو زيد، عبد الرحمن بن محمد، المشهور بابن خلدون، الحضرمي المغربي بتونس، في غُرّة رمضان سنة 732 هـ (27 مايو سنة 1332 م)، وشبَّ فيها. بدأ حياته بحفظ القرآن الكريم، ثم العلوم الشرعية والعلوم اللسانية. وحظي في جميع دراساته بإعجاب أساتذته ومشايخه، ونال إجازاتهم. ثم تولى الكتابة والوساطة بين الملوك في المغرب والأندلس، ثم اعتكف أربعة أعوام في قلعة "ابن سلامة" في الجزائر، تفرغ فيها لتأليف كتابه التاريخي الشهير (كتاب العبر). انتقل بعد ذلك إلى مصر، فولاه السلطان برقوق قضاء المالكية. ولكنه استقال بعد فترة، وانصرف إلى التدريس والتصنيف، منطويًا على جراح عميقة في نفسه بسبب غرق أسرته، وهي في طريقها إليه من المغرب. وفي السادس والعشرين من رمضان سنة 808 هـ (16 مارس 1406 م؛ علي وافي 1984:29، 111) انطفأ بمصر سراج حياةٍ عامرة بالنشاط، وحافلة بجليل المآثر وروائع التفكير والابتكار، عن ستة وسبعين عاماً.

ابنُ خلدون سليل أسرة كبيرة عريقة، لها نشاطها السياسي والعلمي منذ قرون طويلة. وهو شخص موهوب، امتاز بسعة اطلاعه على ما كتبه الأولون، وعلى أحوال البشر. وكان قادراً على استعراض الآراء ونقدها، دقيق الملحوظات في أثناء ذلك كلّها، مع حرّية في التفكير، وإنصافٍ لأصحاب الآراء المخالفة لرأيه. وهو مفكر متّزن، لا يميل مع الهوى، بل يراه المرء يقيد استنتاجاته كلّها بما هو مشاهد في الاجتماع الإنساني، أو بما

عرفه، أو بلغه من الأحوال، أو بما تضافرت عليه الأدلة. ولقد كان لتجاربه الغنية في الحياة السياسية والإدارية وفي القضاء - إلى جانب أسفاره الكثيرة بين الأندلس وشمالي أفريقيا وغربيها إلى مصر والحجاز والشام - أثرٌ بالغ في تكوين خصائصه العلمية وبنية الشخصية.

2.1 نشاطه في التأليف

قامت شهرة ابن خلدون على مقدمة كتابه في التاريخ (الموسوم باسم كتاب العبر، وديوان المبتدأ والخبر، في أيام العرب والعجم والبربر، ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر)، والذي جرت العادة باختصار اسمه نحو "كتاب العبر". وهو يقع في سبعة مجلدات. ويُعدُّ أهم مرجع علمي في حياة البربر وإماراتهم وملوكهم.

أما مقدمة تأريخه، وهي المشهورة بمقدمة ابن خلدون، فقد جاءت عنواناً على عبقريته وفهمه، وغوصه لاستخلاص المبادئ الشمولية في فلسفته الاجتماعية، ونظرته اللغوية. فيها - وحدها - نال ابن خلدون القِدْحَ المُعَلَّى؛ لأنه أتى فيها بأبحاث جديدة من قبيل ما يسميه أهل هذا الزمان بعلوم الاجتماع، والاقتصاد السياسي، وفلسفة التاريخ. فتصدى لذلك وأجاد فيه، وأهل أوروبا حينئذ كانوا في غفلة تامة، وجهل مطبق، ولم يكتب غيره من العرب في هذا المجال إلا نثقاً متفرقة.

لقد استوعب ابن خلدون التراث الإسلامي في مقدمته، وتمكّن من تلخيصه بطريقة فذة؛ بفضل امتلاكه للغة وتطويعه للعبارة، قبل أن ينجح في بلورته في نظريات عامة. وكانت العلوم العربية والإسلامية هي القاعدة التي انصبّت عليها المقدمة.

لقد مثلت مقدمة ابن خلدون منظومة الفكر العربي الأصيل المتكامل في مسار الحضارة العربية، واستوعبت التراث العربي، مع غزارة تأليفية، هي وليدة القدرة على التجريد، والطاقة في الاستقطاب المعرفي الشامل.

إن ابن خلدون يُمثّلُ ثمرة نضج معرفي طويل المدى في تأريخ الحضارة العربية، حيث حَرَصَ على أن يُضَمَّنَ مقدمته كلّ ما انتهى إليه، وتوفر لديه من علوم عصره، وعصارة تجاربه ومشاهداته؛ خوفاً من ضياع التراث العربي الأصيل، بعد هجمات التتار

وغيرهم على بلاد الإسلام، ومن ثمّ غلبت على عصره روح الجمع وتدوين المُصنَّفات الضخمة (الموسوعات).

3.1 آراؤه

1.3.1 آراؤه في علماء اللغة السابقين

تحدّث ابن خلدون في مقدمته بإعجاب وتقدير عن جهود علماء اللغة الأوائل، فأثنى على الخليل وأشاد بمجهوده اللغوي اعترافاً بعظيم فضله، وإعجاباً بمعجمه (العين) وطريقة ترتيبه وفق مخارج الحروف، وتحدث بإعجاب عن عقلية الخليل الرياضية وابتكاره طريقة التقاليب الصوتية، واعتماده على البناء الثلاثي للكلمة. كما أعجب بدور سيبويه البارز في خدمة العربية، حيث اعتبر كتابه كتاباً جامعاً لقواعد اللغة العربية وأصولها. فهو كتاب لغة ونحو، وليس محصوراً في القواعد النحوية فقط كما يرى بعض الباحثين. فأوصى ابن خلدون بقراءته لمن أراد أن يتعلم العربية ويُجيدَها (ابن خلدون ط 1976 1256:1256:4). كما أثنى، أيضاً، على جهود ابن جنى اللغوية، وآرائه المتطورة التي أتى بها في مجال اللغة. ويشير إلى أنّ هناك تشابهاً بين نظرتي ابن حزم وابن خلدون للغة، واهتمامهما بتسجيل آداب العامة، ولغاتها في سياق موازٍ لآداب الخاصة ولغاتها.

وكذلك يلمحُ المرءُ تأثير ابن مضاء في آراء ابن خلدون في اللغة من حيث الدعوة إلى عدم التفريع والتعقيد، مما يعني بداهة العودة باللغة إلى أصولها. وهكذا يرى المرءُ التقاء ابن خلدون مع علماء اللغة القدامى.

2.3.1 آراؤه في بعض المسائل اللغوية

إنّ بُحوثَ ابن خلدون في الظاهرة اللغوية ضاربةٌ جذورها في التراث العربي، ويلمُحُ المرءُ أنّ ابن خلدون كان ينظر إلى اللغة في سياقها الاجتماعي، وأنّ أساسَ تفكيره اللغوي هو التضادُّ بين الحضارة والبداءة، وأنّ الإنسانَ العربيَ ضائعٌ ومشتتٌ حقاً. فإذا أراد حُسنَ الكلام وفصاحته وجب عليه أن يرجع إلى الفقر أو البادية. وإنّ أراد حياة المدن والحضارة فسدت لغته. ويظهر من ذلك مبدأ تفسيري، هو أنّ اللغة العربية لغة شفوية، وأنّ مفتاحَ التصور العلمي في شأن الظاهرة اللسانية يأتي عند ابن خلدون في

مستوى التصويت والتواصل والعقد الجماعي: "علم أن اللغة في المتعارف هي عبارة المتكلم عن مقصوده، وتلك العبارة فعل لساني، فلا بد أن تصير ملكة منقررة في العضو الفاعل لها وهو اللسان، وهي في كل أمة بحسب اصطلاحاتهم" (الموضع السابق نفسه).

2. مفهوم الملكة اللسانية عند ابن خلدون

1.2 عام

إن مفهوم الملكة اللسانية مفهوم متأصل في فكر ابن خلدون الاجتماعي وفي نظريته إلى اللغة. بل إن المقدمة كلها تدور حول قضية الملكة اللسانية، وأن هذه الملكة خضعت للمنهج العام الذي فهم به ابن خلدون كل الظواهر الاجتماعية؛ من معرفة طبيعتها والأسس التي تقوم عليها، والقوانين التي تحكمها، والعوامل المؤثرة فيها صِحَّةً وفساداً، وعلاقة دراسة اللسان العربي بها.

الملكة اللسانية اصطلاح لابن خلدون يقصد به "قدرة اللسان على التحكم في اللغة والتصرف فيها". وهذا يتفق مع تفسير المعاجم لمعنى "الملكة" (عموماً، فهي تعني "احتواء الشيء مع الاستبداد به" (ابن منظور، الأصل، مادة "ملك"). لكنها هنا "ملكة لسانية". فهي منسوبة إلى اللسان الذي هو محلها، وتصير ملكة له إذا احتوى اللغة وتمكن منها واستبد بها.

وقد فسر ابن خلدون هذا المصطلح بما يحقق معناه اللغوي السابق، ثم التزمه في كل ما ذكره في قضاياها كلها، المتعلقة بتحصيل الملكة أو جودتها أو فسادها أو دراستها في علوم اللسان العربي.

والملكة اللسانية - بهذا الفهم - هي أساس الدرس النحوي وغايته، بل هي أساس كل دراسات اللسان العربي وغايته من نحو وصرف وبلاغة و أدب، وقد سعى علماء اللغة وراء الحصول عليها عند الناطقين الفصحاء في الحضر والبادية. والهدف منها تقويم اللسان واقتداره على نطق اللغة صحيحةً مستقيمةً مُبَيَّنَةً بليغةً.

وأوضح ابن خلدون في معرض كلامه عن الملكة اللسانية أن مفهوم الملكة هذه،

مفهوم خاص لا ينبغي الخلط بينه و بين مفهومين لغويين أساسيين، هما صناعة العربية وقواعد اللغة، وذلك على الرغم من أنّ هذين المفهومين يرتبطان بصلة وثيقة بمفهوم الملكة اللسانية.

فالمملكة اللسانية، في نظر ابن خلدون، تختلف عن صناعة العربية. فيقول صراحة: "من هنا يُعلم أنّ تلك الملكة هي غير صناعة العربية وأنها مستغنية عنها بالجملة" (المصدر نفسه: 1277). وهي حقيقة لغوية قائمة تختلف عن صناعة العربية، إذ يرى أن صناعة العربية ليست واجبة لتوافر الملكة اللسانية، بل إنّ الملكة اللسانية تستقيم بصورة مستقلة عن صناعة العربية. ومع ذلك لا يغفل ابن خلدون عن الإشارة إلى العلاقة القائمة بين الملكة اللسانية وصناعة العربية، فيقول: "ذلك أنّ صناعة العربية هي معرفة قوانين هذه الملكة ومقاييسها خاصة. فهو علمٌ بكيفية، وليس نفس الكيفية" (المصدر نفسه: 1276) فصناعة العربية ناجمة عن المعرفة بقوانين الملكة اللسانية، والتزام قوانينها وليست هي الملكة اللسانية.

من الواضح أنّ ابن خلدون يُميّز بين الملكة وصناعة العربية. وهذا التمييز يقارب التمييز الذي وَجَّهَتْ اهتمامها إليه النظرية التوليدية، حيث ميزت بين الكفاية اللغوية والأداء الكلامي. فالكفاية اللغوية من هذا المنظار حقيقة عقلية تقود عملية الأداء الكلامي. وهي المعرفة الضمنية بالقواعد التي تنتج الجمل، في حين أن الأداء الكلامي هو الاستعمال الآني لهذه المعرفة الضمنية بالقواعد التي في عملية التكلم. فالأداء الكلامي يتم عبر اعتماد قوانين الكفاية اللغوية (محمد عيد 1975: 24).

لقد ميّز ابن خلدون كذلك بين الملكة اللسانية وقوانين الإعراب. فيقول في هذا الصدد: "وهكذا العلم بقوانين الإعراب مع هذه الملكة في نفسها، فإن العلم بقوانين الإعراب إنّما هو علم بكيفية العمل وليس هو نفس العمل" (المصدر نفسه: 1277). فالمملكة اللسانية في نظر ابن خلدون هي معرفة فطريّة راسخة بقوانين الإعراب، وليست قوانين الإعراب ذاتها. كما أنها ليست صناعة العربية بل إن صناعة العربية تقوم على المعرفة بقوانين الملكة، أي المعرفة بقواعد اللغة. فالمملكة اللسانية هي المقدرّة على استعمال اللغة الاستعمال الصحيح في شتى ظروف التكلّم أو الكتابة، وليست على كل حال الإلمام

المباشر والدقيق بقوانين الإعراب. فالإنسان الذي اكتسب الملكة اللسانية وأتقن التعبير في لغته ليس بالضرورة عالماً بأساليب الإعراب وبصناعة العربية.

2.2 تعريف الملكة اللسانية

عرّف ابن خلدون الملكة بصورة عامة، بأنها صفة راسخة في النفس تُمكن الإنسان من القيام بالأعمال العائدة إليها. والإنسان مُهيأً لاكتساب الملكات، فيقول: "إن الملكات صفات للنفس وألوان، فلا تزدهم دفعة. ومن كان على الفطرة كان أسهل لقبول الملكات وأحسن استعداداً لحصولها" (المصدر نفسه 3: 930).

كما أشار في عدة مواضع إلى أن الملكة صفة راسخة ينبغي أن تكون مستحكمة وجيدة وتامة ومستقرة؛ وذلك لكي يتاح للإنسان القيام بالأفعال العائدة إليها وإتقانها (المصدر نفسه 3: 923، 4: 1279، 1280، 1285).

ويتحدث عن الملكة فيقول: "يظن كثير ممن لم يعرف شأن الملكات أنّ الصواب للعرب في لغتهم أمرٌ طبيعي". ويقول: "كانت العرب تتطق بالطبع وليس كذلك، وإنما هي ملكة لسانية في نظم الكلام، تمكنت ورسخت، فظهرت في بادئ الرأي أنها جِبِلَّةٌ وَطْبَعٌ" (المصدر نفسه 4: 1279).

فاللغة في نظره ملكة كلامية، أو ملكة في اللسان. يُقدّمُ تصويره لهذه الملكة من ناحيتين؛ ناحية الألفاظ المفردة والمركبة، وناحية تَمَكُّن الملكة لدى المتكلم مما أُطلق عليه تكرر الأفعال. ويرى أن تمام الملكة اللسانية إنما هو بالنظر إلى التراكيب اللغوية لا بالنظر إلى المفردات. وهذه التراكيب اللغوية تعبر عن المعاني المقصودة للمتكلم، فيحقق بهذا الإفهام، ويراعي في تأليفها المطابقة لمقتضى الحال، وهذا في نظره هو معنى البلاغة (محمد عيد، المرجع نفسه: 25).

لقد سبق ابن خلدون في تصويره للملكة اللسانية فهم اللغويين المحدثين لها من حيث اعتمادها على الجملة لا المفردات، ومن حيث تدرجها من الإفهام إلى الصحة إلى البلاغة، ومن حيث حصول هذه الملكة من العرف والعادة والمعاشية المستمرة للنطق في بيئة الفرد اللغوية (المرجع السابق نفسه: 27).

يتضح مما سبق أن الملكة صفة راسخة في النفس، أو استعداد عقلي خاص لتناول أعمال أو أداء وظائف معينة بحذق ومهارة. أما الملكة اللغوية فهي الاستعداد الفطري لتلقي اللغة أو تعلمها. وهذا الاستعداد الفطري يشمل التكوين الجسدي المتمثل في وجود سلامة جهاز النطق، وجهاز السمع الذي يضبط وينظم الأصوات الصادرة والواردة. كما يشمل الاستعداد الذهني الذي يتمكن به الدماغ من القيام بوظائفه في ضبط حركة الفم والحلق، وتمييز الأصوات وفرزها وتصنيفها، والإفادة من المعلومات المسموعة وتذكرها، وتخزين الإحساسات ورصد المشاعر. وكذلك يشمل القدرة على تقليد الآخرين ومحاكاتهم في ترديد النماذج الكلامية المسموعة أو نطقها.

3.2 اكتساب الملكة

يُظنُّ كثير ممن لم يعرف شأن الملكات أن الصواب للعرب في لغتهم - إعراباً وبلاغةً - أمر طبيعي. فيقول ابن خلدون: "كانت العرب تتطق بالطبع، وليس كذلك، وإنما هي ملكة لسانية في نظم الكلام تمكنت ورسخت، فظهرت في بادئ الرأي أنها جِبِلَّةٌ وطبع. وهذه الملكة إنما تحصل بممارسة كلام العرب وتكراره على السمع والتفطن لخواص تراكيبه" (المصدر نفسه 4:1297).

يرى ابن خلدون أن الملكة اللسانية هي أساس في لغة المنشأ حيث يتعرع الإنسان. فهي بالتالي في لغة الإنسان الأم، وتحصل بالممارسة والاعتیاد والتكرار لكلام العرب ومخالطتهم، حتى تتمكن وترسخ، فتظهر بعد ذلك كأنها جِبِلَّةٌ وطبعٌ، وعندئذ يصعب على الإنسان اكتساب ملكة لسانية تامة وراسخة إضافة إلى ملكته اللسانية الأولى. يقول: "فإذا تقدمت في اللسان ملكة العُجْمَة، صار مقصراً في اللغة العربية، لما قدمناه، من أن الملكة إذا تقدمت في صناعة بمحلٍّ، فقلَّ أن يجد صاحبها ملكة في صناعة أخرى، وهو ظاهر" (المصدر نفسه 4:1252). فتقتصر الملكة اللسانية على لغة واحدة هي لغة الأم، أي لغة المجتمع الذي يولد الإنسان فيه ويتعرع، ولا تختص، قط بالجنس ولا بالعرق. بل تتكوّن عند الطفل خلال نموه في المجتمع الذي يتكلمها. وأشار ابن خلدون إلى ذلك حين لَحَظَ أن بمقدور أطفال العجم الصغار اكتساب اللغة العربية عندما يتعرعون في مجتمع عربي، وذلك قبل أن يكتسبوا لغتهم القومية: "إلا أن تكون ملكة العجمة السابقة لم تستحکم

حين انتقل منها إلى العربية، كأصاغر أبناء العجم الذين يربون مع العرب قبل أن تستحكم عجمتهم، فتكون اللغة العربية كأنها السابقة لهم، ولا يكون عندهم تقصير في فهم المعاني من العربية " (الموضع السابق نفسه).

كما يرى ابن خلدون أن كل إنسان نشأ وترعرع في بيئة تتكلم بلغة معينة يكون قد اكتسب ملكة لسانية في هذه اللغة؛ أي اكتسب المقدرة على استعمال اللغة من خلال المعرفة الضمنية بقواعد اللغة وقوانين صناعة الكتابة. ويقرر أن اللغة ملكة لسانية مكتسبة، ومن كان على الفطرة كان أسهل لقبول الملكات وأحسن استعداداً لحصولها. والملكات اللسانية كلها تُكتسب بالصناعة والارتياض في كلامهم حتى يحصل شبه في تلك الملكات، ويتم ترسيخ الملكة بالممارسة والاعتیاد وكثرة الحفظ والاستعمال والتكرار لكلام العرب فتزداد رسوخاً وقوة. ويقول ابن جنّي في معرض حديثه عن انتقال لغة العربي الفصيح: " وذلك لأن العرب وإن كانوا كثيراً منتشرين وخلقاً عظيماً في أرض غير متحجرين ولا متضاغطين فإنهم بتجاورهم وتلاقيهم وتزاورهم يجرون مجرى الجماعة في دار واحدة، فبعضهم يلاحظ صاحبه، ويراعي أمر لغته، كما يراعي ذلك من مهم أمره " (ابن جنّي ط 1988 :2 18). وبهذه الملاحظة وهذه المراعاة يكتسب الفرد الناشئ منهم عند اتصاله واختلاطه بهم سليقته اللغوية أو ينميها ، كما يكتسب أي عادة في مجتمعه أو يطورها. إنه يكتسب منهم مفردات لغته، ويتعلم قواعد تراكيب هذه المفردات وطرق تأليفها للتعبير عن المعاني والمقاصد والمواقف المختلفة، كما يتعلم كيفية استخدامها في سياقاتها وأنساقها المقبولة، ويتعرف ما يتواطأ عليه أفراد المجموعة اللغوية ويتعارفون عليه من اختصارات أو أنماط في تركيبها وفي طرق نطقها. ويمر اكتساب الملكة اللسانية بمراحل عديدة يلخصها ابن خلدون في الشكل التالي: " الملكات لا تحصل إلا بتكرار الأفعال؛ لأن الفعل يقع أولاً، وتعود منه للذات صفةً، ثم تتكرر فتكون حالاً، ومعنى الحال أنها صفة غير راسخة، ثم يزيد التكرار فتكون ملكة أي صفة راسخة " (المصدر نفسه 4:1269).

4.2 سبقُ ابن خلدون بنظرية اكتساب اللغة

إن ابن خلدون قد أثار مسألة اكتساب اللغة بوضوح وأبدى بعض الآراء التي بالإمكان عدّها متطورة جداً نسبة إلى عصره وإلى أيامنا هذه أيضاً، وأدرك بثاقب نظره ضرورة البحث فيها حينما قال: "وهذه الملكة كما تقدّم، إنما تحصل بممارسة كلام العرب وتكرره على السمع والتفطن لخواص تركيبه، وليست تحصل بمعرفة القوانين العلمية في ذلك التي استنبطها أهل صناعة البيان. فإن هذه القوانين إنّما تفيد علماً بذلك اللسان ولا تفيد حصول الملكة في محلّها (المصدر نفسه 4:1279-1280). وتهتم النظرية اللسانية التوليدية والتحويلية المعاصرة بنظرية الاكتساب اللغوي؛ فتشومسكي يولي هذه المسألة اهتماماً متزايداً حيث يقول، عن محمد عيد (14:1975) : "إنّ المسألة الأساسية في دراسة اللغة في رأيي هي أن تفسّر كيف يمكن اكتساب المعرفة باللغة، هذه المعرفة التي لا تكفي التجربة، بالتأكيد، لتحديدها".

إنّ مسألة كيفية اكتساب الكفاية اللغوية مسألة مهمة جداً في إطار النظرية التوليدية والتحويلية التي تسعى إلى وضع نظرية اكتساب اللغة بحيث تُحدّد ضمن الكفاية اللغوية الخاصة بمتكلم اللغة القضايا الفطرية والقضايا المكتسبة وتدرس كيفية اكتساب اللغة، وعلاقة الاكتساب بالقواعد الكلية (محمد عيد، المرجع نفسه:72).

ويرى ابن خلدون أن الإنسان لا يستطيع امتلاك أكثر من ملكة لسانية واحدة بصورة تامة؛ وذلك لأن الموقع في النفس المختص بالملكة اللسانية قد احتلته الملكة اللسانية العائدة إلى لغة المرء الأم، فهو بالتالي غير شاغر لاستقبال ملكة لسانية أخرى مغايرة. وذلك في قوله: "وانظر من تقدّم له شيء من العجّمة، كيف يكون قاصراً في اللسان العربي أبداً، فالأعجمي الذي سبق له اللغة الفارسية لا يستوي على ملكة اللسان العربي ولا يزال قاصراً فيه ولو تعلّمه وعلمه. وكذا البربري والرومي والأفرنجي قلّ أن تجد أحداً منهم مُحكماً لملكة اللسان العربي، وما ذلك إلا لما سبق إلى ألسنتهم من ملكة اللسان الآخر" (المصدر نفسه 4:1288).

إن قصور الأعجمي في مجال اكتساب اللغة لا يرتد إلى أصله، بل إلى سبق الملكة اللسانية العجمية عنده؛ وذلك لأنّ اكتساب اللغة مقدرة إنسانية بصورة عامة، ولا ترتبط

بجنس الطفل أو بلونه. ويعتقد ابن خلدون أن الطفل الأعجمي، حين يترعرع في البيئة العربية في سنين حياته الأولى، بمقدوره أن يكتسب اللغة العربية: "إلا أن تكون ملكة العجمة السابقة لم تستحكم حين انتقل منها إلى العربية" (المصدر نفسه 4:1252).

ومن الواضح أن الملكة اللسانية تتأصل في ذات المرء، وليس بالإمكان نزعها واستبدالها بملكة أخرى مغايرة؛ لأنها صفة راسخة وتامة ومتأصلة عند صاحبها. ويعمم ابن خلدون ملحوظاته هذه ويقرُّ المبدأ العام الآتي: "إن الملكة إذا سبقتها ملكة أخرى في المحلّ، فلا تحصل إلا ناقصة مخدوشة" (المصدر نفسه 4:1282)، ومما لا شك فيه أنّ بمقدور الإنسان أن يتعلّم لغة ثانية، إلا أن ملكته للغة الثانية تبقى ناقصة بعض الشيء وإن بلغ إتقانه للغة الثانية أقصى درجات الإتقان.

وهذا أمر طبيعي عائد إلى أن الملكة اللسانية الحقيقية، يتم من خلال الترعرع بصورة طبيعية في البيئة. وهذه الملكة تتأصل في ذات الإنسان على نحو يؤثر في كل عملية تعلّم لاحقة تختصّ بأية لغة أخرى، فالملكة اللسانية الحقيقية لا تتم عند الإنسان إلا مرة واحدة وفي اللغة التي يترعرع فيها المرء (محمد عيد، المرجع نفسه: 75-76).

ومما يبدو أن إحكام ابن خلدون لنظرية الاكتساب والتحصيل في شأن الظاهرة اللغوية إنما جاء كثمرة من ثمار منحاها الاختباري، ومنزعه إلى الاستقراء التجريبي. فقد نفذ بحسّ دقيق - كاد يتفرد به - إلى مفاعلات الاكتساب اللغوي متحسناً قوام الظاهرة الكلامية انطلاقاً من فكرة الملكة وملاستها التجريبيّة. وأوّل ما يتقرر لديه في هذا المضمار أن الملكة في الحدث اللغوي تستند إلى حصوله كلاً لا يتجزأ. إنّ ممارسة الإنسان للغة بالملكة تنفي عنه أن يكون واعياً بانفصال مفرداتها عن تراكيبها. وهو ما ينم عن بصيرة عميقة عند صاحب المقدّمة في أمر الظاهرة اللغويّة، ممّا يلحق الاكتساب عن طريق المنشأ الطبيعيّ بقوانين الإدراك الشموليّ، حيث يعي الإنسان الكلّ دون أن يكون حتماً قد وعى أجزائه (عبد السلام المسدي 1993:192-193).

إن مفهوم الملكة اللغوية عند ابن خلدون متطابق مع مبدئين أساسيين. هما مبدأ

العلم والمعرفة، ومبدأ القدرة والاستطاعة. وبينهما من التفاعل العضوي مثل الذي بين الإدراك والتعبير.

5.2 اجتماع الملكة اللسانية مع الملكة الصناعية

لقد بلور ابن خلدون مبدأ اجتماع عنصرَي الملكة والصناعة في مفهوم اللغة. وذلك بإحلال اللسان محلّها جميعاً ، فيتخذ منه محوراً مركزياً ينسب إليه الاستعداد بالملكة والرياضية بالصنعة. فيصبح الكلام مهارة مكتسبة بالاستعداد والمران في الوقت نفسه. ويلاحظ المرء تنوع عبارة ابن خلدون في وصف اللغة. فهي "ملكة اللسان" مرة، و"صناعة ذات ملكة" طوراً، و"ملكة اللسان بمنزلة الصناعة" تارة أخرى.

أما طرائق الاكتساب اللغوي فإنها تأخذ عنده بُعداً مزدوجاً من التنظير والاختبار، لأنه يزوج بين تفحص ملابسات التحصيل واستكشاف نواميس الكلام من خلال تلك الملابسات في الوقت نفسه. لكن أول مبدأ ينطلق منه اختبارياً هو تقريره أن "السمع أبو الملكات اللسانية والسر في ذلك - حسبه - أن النفس تجنح لما يلقي إليها، لذلك كان لسان الإنسان صورة للسان من ينشأ بينهم، لأنه يسمع كلامهم وأساليب مخاطبتهم وكيفيات تعبيرهم عن مقاصدهم ابتداءً بالمفردات في معانيها وانتهاءً بالتراكيب في انتظام بعضها ببعض، ولا يزال يتجدد في كل لحظة ومن كل متكلم، واستعماله يتكرر إلى أن يصير ذلك ملكة راسخة" (عبدالسلام المسدي، المرجع السابق نفسه: 195-196).

إن ابن خلدون يلفت المرء إلى شيء جديد حقاً. هو أنه من رأيه أن الاقتصار على تعليم القرآن ينشأ عنه القصور عن ملكة اللسان جملةً (المصدر نفسه 4: 1241). ويعلّل ذلك بأن البشر مصروفون عن الإتيان بمثل القرآن ومحاكاته، مشيراً بذلك إلى ما ذكره القرآن: "قُلْ لِّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً" (الإسراء: 88)، وقوله: "أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَاذْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ" (هود: 13)، وقوله: و "فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ" (الطور: 34).

وبهذه الصرفة لا يتحقق للمشتغلين به المقتصرين عليه ملكة تماثله أو تحاكيه، كما أن الاقتصار على القرآن والاشتغال به وحده يجعل صاحبه بمعزلٍ عن تحقيق ملكة لسانية، وذلك أن القرآن لا ينشأ عنه في الغالب ملكة. إن البشر مصروفون عن الإتيان بمثله، فهم مصروفون لذلك عن الاستعمال لأساليبه والاحتذاء بها. وليس لهم ملكة في غير أساليبه، فلا يحصل لصاحبه ملكة في اللسان العربي، وحظه الجمود في العبارات وقلة التصرف في الكلام. فقرر ابن خلدون، بناءً على ذلك، أن أهل أفريقية والمغرب قاصرون في ملكة اللسان العربي؛ لاقتصارهم على تعلم القرآن، وربما كان أهل أفريقية في ذلك أخفّ من أهل المغرب لما يخالطون في تعليمهم القرآن بعبارات العلوم في قوانينها، فيقتدرون على شيء من التصرف ومحاذاة المثل بالمثل، إلا أن ملكتهم في ذلك قاصرة عن البلاغة، وأما أهل الأندلس فأفادهم التّفنُّن - في التعليم وكثرة رواية الشعر والترسل ومدارسة العربية من أول العمر - حصول ملكة صاروا بها أعرف في اللسان العربي. ويرى ابن خلدون أن يتعلم الصغار أولاً كلام العرب وخاصة الشعر، ويدرسون العربية، ثم بعد ذلك يتعلمون القرآن؛ فتترسخ الملكة بذلك في أذهانهم.

إن محمد عيد يؤكد ما ذهب إليه ابن خلدون من قصور الملكة اللسانية حين الاقتصار على تعليم القرآن، فيقول (المرجع نفسه: 41): "كثيراً ما نرى في القرى والمدن المصرية من يحفظون القرآن ممن يُسمَّونَ (بالفقهاء)، وهم يرتلونّه في الدُّور والقبور والأفراح والمآتم، وقد حفظوا القرآن وجودوه في صغرهم غالباً في (الكتاتيب) وقد قصروا أنفسهم عليه، فلا يعرفون غيره".

6.2 اكتساب ملكة الشعر والنثر وصلتها بالملكة اللسانية

تحدث ابن خلدون كذلك عن الملكة الشعرية، وأوضح بأنها تنشأ بحفظ الشعر حيث يقول: "اعلم أن لعمل الشعر وأحكام صناعته شروطاً، أولها الحفظ من جنسه، أي: من جنس شعر العرب حتى تنشأ في النفس ملكة ينسج على منوالها، ويتخير المحفوظ من الحُرِّ النقي الكثير الأساليب... ثم بعد الامتلاء من الحفظ وشحن القريحة للنسج على المنوال يقبل على النظم، وبالإكثار منه تستحكم ملكته وترسخ" (المصدر السابق نفسه

(1296:4).

يفهم من هذا النص السابق أن ابن خلدون يعد الشعر "ملكة صناعية"، ويصف الكيفية التي تصنع بها هذه الملكة، حيث تبدأ باختيار ما يحفظ من شعر العرب، ثم حفظه. وبكثرة الحفظ تنشأ الملكة التي شبهها بالمنوال الذي ينسج عليه، ثم يقبل بعده على النظم، وبممارسته وتوالي هذه الممارسة تستحكم الملكة وترسخ.

فحديثه عن "ملكة الشعر" هو في واقع الأمر حديث عن اكتساب المهارة اللسانية لقول الشعر. وأدار حول هذا الجانب اللغوي وحده كل آرائه، وأغفل جوانب أخرى خطيرة لازمة للشعر والشاعر وهي "الموهبة والوعي" (محمد عيد، المرجع نفسه: 47). وكما أفرد ابن خلدون الشعر بكلام مُستقل عدّة مرات في مقدمته، كذلك خصص في مقدمته عدة فصول للحديث عن النظم والنثر مجتمعين، مع الحديث عن أسلوبهما ولغتهما. وأثار حول هذين الفنّين عدة مباحث مهمة. لكن أهم ما نلاحظه على هذه المباحث أنه ربط بينهما وبين الموضوع الرئيس الذي يدور حوله كل تفكيره، وهو "الملكة اللسانية"، سواءً أكان ذلك على مستوى صحة اللغة أم جمالها.

7.2 تنازع ملكتي النظم والنثر

عنوان أحد فصول المقدمة هو "انقسام الكلام إلى فنّي النظم والنثر" (المصدر نفسه 4:1285). وعنوان فصل آخر هو "أنه لا تتفق الإجابة في فنّي المنظوم والمنثور معاً إلا للأقل" (المصدر نفسه 4:1288). السبب في ذلك ملكة اللسان. فإذا سبقت إلى محله ملكة أخرى، قصرت بالمحل عن تمام الملكة اللاحقة؛ لأن تمام الملكات وحصولها للطبائع التي على الفطرة الأولى أسهل وأيسر، فإذا تقدمتها ملكة أخرى كانت منازعة لها في المادة القابلة، وعائقة عن سرعة القبول فتقع المنافاة ويتعذر التمام في الملكة، وهذا موجود في الملكات الصناعية كلها على الإطلاق. وتحدث في فصل آخر بعنوان "إن صناعة النظم والنثر إنما هي في الألفاظ لا في المعاني" (المصدر نفسه 4:1279). وأفاض ابن خلدون في حديثه عن فهم الملكة اللسانية، وطرائق تحصيلها. فقد حاول كثيراً أن يؤكد في الأذهان فهمها، و أن يجلوها في كل جانب من جوانبها، بتتبعها في كل مناحيها ومظانها.

8.2 تحصيل الملكة اللسانية للأجانب وأهل الأمصار

من الجوانب التي عرضها ابن خلدون من أمور الملكة اللسانية هو "تحصيلها بالنسبة للأجانب" عن اللغة العربية، سواءً أكانوا أجانباً تماماً عن هذه اللغة، أم مولّدين ممّن سبقت العجمة إلى ألسنتهم. بل إنه درس أيضاً تأثير العجمة في الألسنة على تحصيل العلوم باللسان العربي. ففصل من فصول المقدمة عنوانه "تفسير الذوق في مصطلح أهل البيان وتحقيق معناه، وبيان أنه لا يحصل للمستعربين من العجم" (الموضع السابق نفسه)، وآخر عنوانه "أهل الأمصار على الإطلاق قاصرون في تحصيل الملكة اللسانية التي تستفاد بالتعلم، ومن كان معهم أبعد عن اللسان العربي كان حصولها له أصعب وأعسر (المصدر نفسه 4:1282)؛ لأن وسيلتهم لتحصيل اللسان العربي الفصيح تتم عبر التعليم، وذلك من تلقين للنصوص ومعرفة بقواعد الضبط والإعراب، كما هو الشأن الآن في تعليم اللغة العربية في كل الأمصار الإسلامية لأهلها من الحضريين. ومن رأيه - كما هو نهجه دائماً - أن التعلم إنما هو بمخالطة النصوص، من كلام العرب شعره ونثره، وأن القواعد لا جدوى منها في ذلك، وإن كان للنحو بعض الصلة بتعلم هذه الملكة.

وأما قصور أهل الأمصار عن تحصيل الملكة اللسانية التي تستفاد بالتعليم، فسببه في رأيه أنهم يتكلمون "اللغة الحضرية"، وهي لغة كل مصر من الأمصار مكونة من لغته الأصلية والعربية المحرّفة والاصطلاحات الخاصة بكل إقليم. وهي عموماً ما نطلق عليه "العاميات الإقليمية". وهذه اللغة الحضرية لكل مصر تحوّل دون إجادة أهل اللغة العربية المضرية للمنافاة بين الاثنين، إذ تسبق تلك اللغة الحضرية إلى اللسان، وتصير ملكة له، فيتعسر عليه تحصيل الملكة المطلوبة من اللغة الفصحى (محمد عيد، المرجع نفسه: 79).

9.2 قصور الأجانب عن طلب العلم باللسان العربي

أشار ابن خلدون كذلك إلى أن العجمة إذا سبقت إلى اللسان تقصّر بصاحبها في تحصيل العلوم عن أهل اللسان العربي. ويرى أن طالب العلم من المستعربين، سواءً أكان

فارسيًا أم بربريًا أم روميًا أم إفرنجيًا، إذا طلب العلم بين أهل اللسان العربي جاء مقصرًا عن الغاية والتحصيل، وما أوتي إلا من قبل اللسان. فاللسان وعاء الفكر ووسيلته. ومن يستولي على تلك الوسيلة، أو كانت لديه ناقصة مخدوشة، لا يحصل على المادة العلمية التي يحملها بصورة صحيحة تامة.

10.2 فساد الملكة اللسانية

وتطرق ابن خلدون كذلك إلى أحوال الملكة اللسانية، وما يعترئها من فساد وامتزاج وتغير. فيرى أن فساد الملكة سببه مخالطة العجم، ودخول المُعَرَّبِينَ المجتمع العربي الإسلامي. فبدأت الملكة اللسانية عند العرب تقسد قياسًا إلى لغة مُضَرٍّ؛ وذلك بما ألقى إليها السمع من الكلام المخالف لكلام العرب. وقد تبتعد الملكة اللسانية أكثر فأكثر عن الملكة الأساسية نتيجة التفاعل مع لغات أخرى. فتمتزج الملكات وتتكون ملكة جديدة حاصلة من امتزاج ملكتين أو أكثر، وينجم عن فساد الملكة وامتزاجها بملكات أخرى تغير يحصل للملكة اللسانية.

ويلحظ ابن خلدون أن العناية بالملكة اللسانية قد يساعد على المحافظة عليها من الفساد والامتزاج بالملكات الأخرى؛ مما يحافظ على اللغة ويبقي الملكة اللسانية على الشكل الذي كانت عليه عند الأوائل، فالملكة اللسانية من حيث هي صفة في الذات، بالإمكان تغذيتها وإغناؤها.

11.2 الظواهر الاجتماعية العائدة إلى الملكة اللسانية

وعى ابن خلدون ارتباط الملكة اللسانية بالعرف اللغوي الاجتماعي، حيث يستعمل المتكلم لغة المجتمع الذي نشأ وترعرع فيه، وتتطابق معها ملكته اللسانية لا شعوريًا ومن دون أي تفكير في ذلك.² فظواهر اللغة في البيئة شبيهة بظواهر العادات والتقاليد العرفية الأخرى. فاستخدام اللغة يخضع للعرف الاجتماعي العام، ومن هذا المنطلق تعد اللغة ظاهرة اجتماعية تتحكم فيها، إلى حد ما، قواعد اجتماعية على صعيد التواصل

² المقصود بعرف اللغة: نظامها أصواتاً وصيغاً ومفردات وتراكيب حسب أصول استعمالية خاصة بالمستوى الاجتماعي الذي يتداولها فيه أفرادها إذ يجيدها هؤلاء الأفراد بالمشاركة والمران.

داخل البيئة الواحدة.

وفي ذلك يقول جسبرسن: "كلّ شخص يحاول المحافظة على ما ثبت واستقر أو تعورف عليه، فإذا خرج عن ذلك فالنتيجة أن كلامه لا يؤدي فكرته مطلقاً، أو يؤدي ذلك إلى إساءة فهم، لكن الغالب أن يفهم كلامه بصعوبة، إذ يحس سامعوه بشذوذ في اختيار الكلمات أو التعبيرات أو النطق" (Jesperson 1947:82).

12.2 علاقة اللغة بالدين والدولة

مما تحدث فيه ابن خلدون أيضاً كان عن علاقة اللغة بالدين والدولة، وأسماهما بالجيل الغالبيين، في قوله: "اعلم أن لغات أهل الأمصار إنما تكون بلسان الأمة أو الجيل الغالبيين عليها أو المختطين لها؛ ولذلك كانت لغات الأمصار الإسلامية كلها بالمشرق والمغرب لهذا العهدعربية، وإن كان اللسان العربي المضري قد فسدت ملكته وتغير إعرابه. والسبب في ذلك ما وقع للدولة الإسلامية من الغلب على الأمم. والدين والملة صورة للوجود وللملك" (المصدر نفسه 3: 888). فربط بين انتشار الدين في البلاد المفتوحة وتغيّر الملكة اللسانية؛ نتيجة للاختلاط بأهل تلك البلاد المفتوحة، وكذلك تأثير لغة الدين الإسلامي على أهل تلك البلاد، مما أدى إلى نشوء لغات إقليمية خاصة بكل مصر.

ومما يحسن ذكره أن اللغة العربية، إلى جانب أنها لغة الشعب المسيطر والغالب، هي لغة الدين الإسلامي. فعبرها تمت الدعوة الإسلامية، وفي ظلها تم الفتح الإسلامي. ولا مناص للداخلين في دائرة الحكم العربي الإسلامي من اتقانها. "فصار استعمال اللسان العربي من شعائر الإسلام وطاعة للعرب" (المصدر نفسه 3: 889).

وهكذا أدار ابن خلدون بحوثه حول الملكة اللسانية، وكيفية اكتسابها، والمحافظة عليها وتميئتها. وميَّز بينها وبين قوانين النحو وصناعة العربية، كما ربطها بالعرف اللغوي والاجتماعي، وبالدين والدولة.

المصادر والمراجع

أولاً: العربية

ابن جنى، ابوالفتح عثمان	
ط 1407هـ / الخصائص، تحقيق: محمد على النجار. القاهرة: الهيئة المصرية للكتاب.	1988م
ابن خلدون، عبدالرحمن بن محمد	
ط 1967م كتاب العبر، وديوان المبتدأ والخبر، في أيام العرب والعجم والبربر، ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر. بيروت: دار الكتاب اللبناني.	
عيد، محمد	
ط 1979م الملكة اللسانية في مقدمة ابن خلدون. القاهرة: عالم الكتب.	
المسدّي ، عبد السلام	
ط 1993م قراءات مع الشبابي والمتنبي والجاحظ وابن خلدون. ط 4. الكويت: دار سعاد الصباح.	
ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين بن مكرم	
ط 1414هـ / لسان العرب. ط 3. بيروت: دار صادر.	1994م
وافي، علي عبد الواحد	
ط 1404هـ / عبقریات ابن خلدون. المملكة العربية السعودية: شركة مكتبات عكاظ للنشر والتوزيع.	1984م.

ثانياً: فرنجي

Jesperson, O.

1947 Geist. Nature, Development and Origin .London.